تأملات

لغة فى حاجة إلى قاموس

للدكتور محمد عزيز الحبابى

أنواع الخطاب :

يحمل أى خطاب رسالة يحاول إيصالها عن طريق جمل تلفظ لتخلق قارة تتماوج فيها معان تتجاوز كثافة ومضمون الألفاظ وكميتها . فكل مخاطب لا يتكلم أو يكتب من أجل المنطوق والمكتوب فى ذاته ، بل ليشحن جمله تفكيرا ، أو وصفا أو حكاية ، أو انفعالات وجدانية ، ... ، فينزل السكينة على القلوب ، أو قد يزعج المطمئنين . هكذا الخطاب يحزن أحيانا ويقلق ويسر أحيانا ، قد يبلغ أخبارا صحيحة ، وقد يشيع أخطاء ، ... اعتمادا على كل أنواع لغات التواصل .

والتأمل يتم بكلام مجهور ، كما يكون بصمت عميق ، أى بحوار داخلى يوصل أحيانا إلى اكتشاف جوانب من الواقع . فالأكوان موجودة والصعوبة فى كيفية التعبير عنها كلما اقتربنا من وجه من أوجهها . يقوم الخطاب العلمى على ملاحظات ، فنظرة ناتجة ومعبرة عن الملحوظ . إن العلم لا يقضى على الغموض والأسرار ، وإنما يقرب منها . أما الخطاب الفلسفى فيحاول عقلنة العالم ، بما فيه من معطيات علمية وفنية. والفن لا يُجمِّل الطبيعة ، ولكنه يحاول التعبير عن أسرارها للاقتراب منها . فكل أصناف المعرفة تعمل بتكامل ، على إخراج الإنسان من المنفى فى الكون وداخل الذات تحت ضغوط الصيرورة التاريخية . تشعبت الألسنة واللغات المختلفة وهى تنزع جميعها فى تعاون على تحرير المنفى فى عالم الإبهام والالتباس وعدم الدقة بهتك الحجب عسى الإنسانية تكتشف الحقيقة / الحقائق . بيد أن الحوار مع الطبيعة / الكون يكسر التعابير المختلفة ، لأن كيانها غير قادر على المقاومة . فإذا هى تحالفت اكتسبت قدرات خلاقة .

مناعة اللغة :

تكسرت اللغات الميتة لضآلة مناعتها، أما اللغات الحية فتصارع ، لأنها تتطور فتتكيف ، كالشجر الصلب الذى تميل غصونه مع الرياح ، ولكن الجذور تبقى ثابتة . اللغات الحية تؤمن بقدسية التطور والصراع ، أما الأخرى فتظن أنها مقدسة فى ذاتها ، وتبقى تجتر الماضى ، وتستطلع الأساطير . إن البدائى وحده ما يزال يتعبد بالحروف والألفاظ ، فى ذاتها ، محاولا بلا جدوى ، فك الرموز والتواجد [1] مع الألغاز .

اللغات الحية تجعل من الألفاظ نجوماً تضئ الواحدة الأخرى وتستنطقها . فنور مجموع النجوم ليس جمعا رياضيا لأضوائها ، بل تركيبا جداليا تفوق قواه أنوار الوحدات المتفرقة. وعلى عكس ذلك اللغات التى تحب الألفاظ لرناتها وتقدسها لكونها إرثا قديما – كيف لها أن توظف دينامية كل لفظ كى يخلق عوالم يتعاون داخل الجملة ؟

أليس هذا تفقيرا للفكر وتجميدا للإمكانات الخلاقة فى الخطاب ؟

إن البصر والسمع وبقية الحواس لا يمكنها أن تفهم العالم وتدفع بالعقل ومجموع الملكات للإسهام فى تغييره إذا لم تتوفر على لغات تعبر عن الانفعالات الجوانية ، وتبلور كل إحساس لتصنع شعورا ، ثم ترفع الشعور إلى درجة الوعى .

☆ ☆ ☆

فما جاز للألفاظ أن تحرك الأجساد، وتمتزج بالوجدان ، وتصقل الأذهان ، وتدفع العقول للعمل ، لو لم تكن ملتزمة مباشرة بحياة الإنسان وبنحلته من المعاش ، أى لو لم يحصل مسبقا التزام فعلى بين الإنسان واللغة / اللغات التى يستعملها . فالألفاظ لم توضع لتسمع، بل لتتحرك وتحرك . فهناك تلازم بين المنطوق – المسموع وبين ما ينتج عن ذلك . فإن لم يحدث أى رد فعل عن ألفاظ مسموعة ، كانت مثل رصاصة مغشوشة ، لافعل لها ولا رائحة ، بل مجرد لعب عبثى ...

---

(1) تواجد فى مقابل Coexistence تواجد شيآن = كلما أوجد كل منهما فى نفس الآن أو فى نفس المكان .

- فكيف يحصل الترابط بين شئ ما والاسم الذى يطلق عليه (بالنسبة للمحسوسات) ؟

- وكيف يطلق لفظ مجرد ، كـ "عدل" و "مساواة" ... فيحصل تصور معان عامة مجردة ، أى مفاهيم ؟

إن الأجوبة صعبة ، لأن "عدل" مثلا ، رغم شموليته ، كمفهوم ، يقتضى التسليم بنسبيته ، لأن الدساتير كلها تتحدث عن العدل وإن اختلفت ، عمليا ، عند التطبيق ، بل وحتى فى التأمل .

أنواع القاموس :

الحاجة ملحة للرجوع ، أولا ، إلى قواميس تأصيلية وإلى قواميس تاريخية فكثير من الالتباس ومن التناقض يلاحق الألفاظ .

لذلك ، إن وظيفة القاموس التأصيلى أن يحدد جذر اللفظ ، ومشتقاته ، كما يعطى لونيات المعانى ، والمدلول الحقيقى والمدلول المجازى ، وأن يحدد المجيط الخاص بكل لفظ لكى لا يختلط بما سواه ، إذاً لكل لفظ حقل سيميائى خاص به ، وعندما تتداخل الحقول تفقد الألفاظ معانيها المخصصة وتختلط المفاهيم ، وبالتالى يحصل إبهام فى فكر المتحدث ، وبالطبع فى فكر المستمع ، فيتكسر التواصل .

أما وظيفة القاموس التاريخى فهى أن يتتبع المراحل التى مر بها اللفظ ، وتراكم الأحوال التى اعترته فتضخمت معانيه الواقعية والاصطلاحية ، فأدوار القواميس أساسية ، ومن الضرورى تأليفها طبقا لمناهج عقلانية وموضوعية وتربوية ، وإلا تسبب القاموس فى فوضى لغوية وفى عرقلة التفكير السليم .

☆ ☆ ☆

القواميس العربية ، والمنهج :

إن جل القواميس العربية تنقصها المنهجية .

١ - كيف يمكن لتلميذ بالإعدادى ، فأحرى بالابتدائى ، أن يتعامل مع قاموس يقدم له الألفاظ

بحسب الجذور ، لا بحسب المنطوق والمكتوب . وهذا ما يرغم الباحث أن يكون عارفا بالنحو والصرف ، يعنى أن العربية تلزم بالفهم قبل القراءة.

لذلك ، لا يفيد القاموس إلا من لهم دراية مسبقة بالقواعد العربية ... يسأل تلميذ أباه : كيف أكتب نما / نمى ، بألف ممدودة ، أم بياء معرفة مثل رمى ؟

الأب : ابحث فى القاموس عن جذر اللفظة . فالمصدر هو الذى سيدلك على الجواب .

الابن : وكيف أبحث عن مصدر هو أيضا مجهول عندى ؟

٢ – جل الاستشهادات تؤخذ عن تآليف قديمة ، وإن الأساليب القديمة غير متداولة كثيرا ، وغير سهلة بالنسبة لغير المختصين فى اللغويات ، وغالبا ما يكون جل الاستشهادات أبياتا شعرية مما يزيد فى الصعوبة . أليس من اللائق أن تكون الاستشهادات مخضرمة ، ومن أسهل النصوص القديمة والحديثة ، نثرا وشعرا ، وأن تراعى فيها مصلحة الأكثرية من القراء فتقترب أكثر ما يمكن من الحياة اليومية ، ومن الأدبيات المرموقة حاليا التى يقبل عليها الجمهور ؟

٣ – يهمل صانعو القواميس تأصيل الألفاظ . فباستثناء مقاييس اللغة ، لأبى الحسن أحمد بن فارس ، لا أعرف كتابا فى الموضوع .

٤ – كما يهملون تاريخ الألفاظ ، فالدخيل ، متى دخل ، ولماذا ؟ والمقتبس من اقتبسه ؟

إن تاريخ حركية العربية مجهول فى القواميس حتى المعاصرة منها ، اللهم ما كان من الجهد الذى بذله المرحوم (فيشر ، رغم

أنه مـات قـبل إتمامـه) والذى يرجع الفضل لمجمعنا الموقر فى إخـراج ونشـر الكراسـة التى تركها الباحث الألمانى .

٥ – كـثيـرا مـا تحـدد اللفظة التى يراجع من أجلهـا القـامـوس بألفاظ مشتقة من نفس جذرها، أو بمفاهيم أيضا مجهولة وهى نفسـهـا فى حـاجـة إلى شـرح وتحـديد ، أى بالرجـوع إلى القواميس ! ...

فمثلا بالصفحة ٦ من المنجد فى اللغـة والآداب والعلوم ، نبـحث عن "ائتدم" فنجد الشرح الآتى : "أكل الخبز مع الإدام " .

الإدام = كل موافق وملائم .

فالذى يبحث عن ائتدم يجب أن يكون عارفا بمعنى إدام . وهذا تعريف مجهول بمجهول . إذن ، لابد من البحث عن لفظة إدام .

فـهل تعـريف لفظ إدام بـ "كل مـوافق ومـلائم" يوصلنا إلى التعرف على ما نبحث عنه ؟

إن الطائرة توافق وتلائم السفر من المغـرب إلى القـاهرة . فـهل هى إدام ؟

يضـيف صـاحب المنجـد : إدام الطعام هو ما يجعل مع الخبز فـيطيبـه"، اليانسون يجـعل مع الخبز ، فهل هو إدام ؟ والسمك أو البيض يجعلا مع الخبز فمن منهما ادام ؟ ...

مـاذا سـيستـفيد التلمـيذ من المنجد بالنسبة للمادة السابقة ؟

– أمـا فى الصـفـحـة ١٧٥ فى نـفس القـامـوس ، فتـقـرأ فى تعـريف أخس = فـعل فـعـلا خـسـيـسـا ، وأخـسـه = وجـده خسيسا .

كما نجـد : استخسـه = وجده خسيسا .

وفى صفحة أخرى (٣٧٨) :

ساغ الشراب = ساغة يسوغه سوغا ، والسيغ من الشراب = السائغ .

أمثال هاته "التعاريف !" كثيرة جدا فى نفس القاموس .

نفس الطريقة تتبع فى القواميس الحديثة كما اتبعت فى القديمة . فما رأينا قاموسا عربيا من القواميس المتداولة أعطانا تعريفا للإدام من حيث التركيب الكيماوى للمادة ، ومقارنات مع مواد شبيهة بالإدام ، ليعرف التلميذ الفرق الدقيق بين الإدام والزبدة والزيت .

٦ – تحدثنا عن الألفاظ ، وكأن اللغة كل لغة هى الألفاظ . والواقع أن لكل لفظ حقلا دلاليا . فمن المفيد أن تعنى القواميس الموجهة للشباب ، ولعامة الناس، بالحقول ، إذ أن أى عنصر فيها يعين على فهم العناصر الأخرى، ويخصب المخيلات ، ويحرض الفكر الانتقائى والفكر السليم على التحرك .

فإذا تعاون التفكير مع التخيل ، وجند الحدس والذاكرة ، دخل الباحث درب اللعبة واستوحى ما يقوى لديه القدرات المبدعة .

٧ – نصل إلى نقطة أكثر خطورة ، بل إنها الخطر المحيق باللسان العربى : إنها قضية الحركات . نبدأ بسؤال :

ما هو نوع الارتباط بين حدث والتعبير عنه ؟

فلنتصور تلميذا أمام هذه الجمل : "قتل موسى الذئب " مادامت الحركات غير ثابتة سيحار الطفل فى معرفة من القاتل ومن المقتول . فموسى كالذئب لكل منهما قابلية القتل ، وكلاهما مؤهل ليكون المقتول . وأمام خلو الجملة من الحركات سيتردد القارئ بلا جدوى بين

الإثبات والنفى . فرفع الفاعل ونصب المفعول به هما العلامتان المميزتان للقاتل والمقتول . فيكفى تحريك باء ذئب بضم أو فتح ليحل المشكل .

إن لكل لغة تراكيب لا مجرد ألفاظ ، وبالحركات النحوية والصرفية تأخذ المفردات وظائفها فى الجملة . فكيف يستطيع التلميذ التفرقة بين الفعل المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول ؟ "كتب" أهو كتب أم كُتِب أم كَتِب أم كَتَبَ ؟ إن غياب الحركات يدخل عملية الفهم فى ذبذبة ، فينشأ خلط كثير . فقراءة "كتب" مشكل بالنسبة للتلميذ ، (وحتى للأستاذ) .

حقا ، إن اللسان العربى محكم القواعد ، واضح المعالم . لكن إغفال الحركات يحدث عطبا فى تلك القواعد وينزع عنها الفعالية التي توخاها واضعوها كضوابط لصيانة اللسان عن الخطأ ، والفهم عن التيه ، فإزاحة الحركات عن الحروف إهمال وتهميش لدينانامية اللغة .

أن الثورة الثقافية المنتظرة مطالبة بأن تحدث ثورة داخل اللغة العربية تجعل الكتابة غير مبتورة وغير معرضة ، على الدوام ، للالتباس ، فكل جهاز بلا حركات يعد جامدا . أليس الموت فى انعدام الحركات ؟

☆ ☆ ☆

إن التاريخ ملئ بالدروس والعبر لمن يتدبر فهذا الغرب الذى صفّى الحساب مع التخلف الثقافى ، بدأ بتطوير لغاته مع حفاظها على حركيتها بالحركات ، فتغلب على المعوقات الأخرى ، فى ميدان الاقتصاد والتصنيع ، وفى ميدان الإصلاحات والتنظيمات المجتمعية . مثلا، إن الغرب استعاض عن الآلات الحجرية واليدوية ، وصار يستعمل الآلات المصففة، منذ ١٨٨٠ ، أما العالم العربى فلم يعرف هذه الآلات إلا فى عام ١٩٣٥ . وبفضل الآلات المصففة ، توفق الغربيون إلى ٩٠ من مضربات الملمس ، مقابل ١٣٧ فى الآلة العربية .

من هنا نرى كم يضيع من وقت وكم

ترتفع أثمان المطبوعات ، فى حين أن القراء فى شعوب العروبة قليلون وجد فقراء .

☆ ☆ ☆

٨ - مشكلة المشاكل هى أن المضروب على الآلة الراقنة أو خريج المطابع كله بلا حركات ، كما قدمنا ، مما سيجعل المفردات مبتورة لأنه لا يوجد فى الواقع اللغوى "همزة" و "باء" ... ، بل : ءَ ، ءُ ، ءِ ، ءّ و بَ ، بُ ، بِ ، بْ .

كما أن الألف بلا ذاتية مستقلة ، فالذى هو موجود ، عمليا ، هو : ءا ، با .. فالكتابة العربية تعاكس الواقع ، ولا تعترف إلا بالهمزة والباء ، والألف ، أى بأوهام ، ولما تضم هذه الأوهام بعضها ببعض تنشأ عنها أشباح ، أى ألفاظ لا شخصية لها . لأن ما / من افتقد حركاته لا يوجد إلا فى مستشفى ومقبرة.

أنريد معاملة لساننا كما تعامل اللغات الميتة ، أم نتركه يحيا طبيعيا ، كبقية اللغات الحية فى صيرورة ؟

إن كل لفظ بلا حركات لا يحدث مشاكل فحسب ، بل هو نفسه مشكل ، وكل حرف منه يخبىء مفاجآت للتلميذ . فلنضرب على ذلك مثلا بـ "يكلم" : الحروف إذن ، ٤ حركات ممكنة لكل حرف: ٤ × ٤ = ١٦

ثم إن التلميذ إذا رفع الياء تحورت حركة الكاف ... وهكذا . ولو أريد استقصاء الحالات الشكلية التى يمكن أن تعترى كل حرف من تلك اللفظة لخرج التلميذ بعدد باهظ .

☆ ☆ ☆

أدوار اللسان :

تلك نظرة عابرة عن الشكليات ، شكليات اللغة التى هى مجرد أداة للتعبير والتفكير والإبداع .

فلنعرج الآن ، مسرعين ، بالغاية المتوخاة من اللغة .

يعاب على مثقفينا نقصانهم فى عالم الاختراع والاكتشاف ، إلا أن العائبين لا يجرؤون على تشجيع الفكر فى ثورته على الأوضاع التى تعوقه عن ابتكار وسائل

الوصـول إلى التـجـديد ، بطرق جـديدة فكمـا أنه لا حـرث بدون مـحـراث ، كذلك لافهم ولا إفهام بدون لغة .

اللغـة هـى الوسـاطة بين الناس ، من آمـر وناه ، عند التـقـارب والتبـاعـد ، فى السـرور والحزن . إنهـا مـحور كل أنواع التواصل مع الغير ومع الأشياء . أساس حيوى لكل مجتمع بشرى .

وإن المخـترع الحق فى الطبـيعـة هو القـادر على التـعبـيـر عن ظواهرها بدقـة ووضـوح ، فـيضـفى على مـحيطه مسـحة غـيـر عـادية ، وينفخ فى جـمله نبضـات فكرية تنعش الحـوار مع الأشـيـاء ومع الأحياء ، فى ميادين المحسوس والفكر ، وفى ميدان الوجدان . فما بين الألفاظ من إيقـاع وتجـارب ، ومـا بين الصـور من تكامل يعطى الكلام حـيـاة غنية التنوع ، فـيـستطيع المخـاطب أو الكاتب أن ينقل المفردات عن اللفظية إلى المدلول الشامل المشترك .

معنى هذا أنه سيغلب على الأحاديث أن تكون تكرارا لما سبق أن قـاله آخرون بنفس الألفاظ ، ولكن التراكيب والشحنات المفـهـومـيـة هى التى تكوّن اللمـسـات الإبداعـيـة . فـهناك مـيـادين ثقـافـيـة مشـتركة ، وهناك التعبير عنها بأساليب مـخـتلفـة ، وإن فى الاخـتـلاف الغِنَى والتـجـديد . فكل أسلوب يمتـاز بطابع خـاص . فاللفظ إما أن يراد به وصف أو تحليل ، وإمـا إيحاء أو خلق إحساسات ، أو تكييف جـديد للذهنية . فـالكلام كـمـا يقول (هانرى برغسون) : "كالثياب التى تبـاع مـخيطـة . إنهـا لا تلائم الملاءمة الكاملة أى أحد لأنها تلائم ، إلى حد ما ، جميع الناس " .

بناء على مـا تقـدم ، نرى أن اللغـة قالب تفرغ فيه معان وحالات نفسية ، كما أنهـا أداة للاتصـال الفكرى المسـمـى بالمسميات وبين العلاقة المباشرة ومجموع أفراد المجتمع . فملكية تسمية الأشياء ملكة أصيلة مميزة للجنس البـشـرى : "وعلم آدم الأسماء كلها " (قرآن كريم) . فكل مـا يخل بسير لغة من اللغات يؤثر ، إلزاميا ، فى علاقات الأفراد المتكلمين بها وفى علاقاتهم بعالم الأحياء وبالكون .

لطالما حاول أقوام تفسير أسباب تأخرنا فى الإنتاج العلمى ، والفكرى بكيفية عامة ، فحصروها فى أحداث تاريخية مختلفة ، دون أن يعطوا لأداة التفكير (اللسان) حظا من المسؤولية فى هذا التخلف رغم مشاكلها العديدة ، ورغم كون تلك المشاكل قابلة لأن تتجاوز دون تفكيك للضوابط الأساسية أو مس بعبقرية العربية .

☆ ☆ ☆

حصار على اللسان العربى :

فنتساءل ، إذن ، لماذا نتعامل مع اللغة العربية تعاملا يحاصرها حصارا مجمدا، كأنها لغة ميتة ، فنحاصر الفكر والتخيل ؟

فعلى اعتبار ما تقدم : إنها ليست ميتة ، إلا أنها لا تتمتع بكل مميزات الحياة ؛ فنى الوقت الذى نشاهد ما اكسبها الصحفيون المجدون من مرونة ، وما اكتسبت من تطور بفضل أمثال أحمد شوقى وشعراء المهجر ونزار قبانى ومحمود درويش وسعاد الصباح وميخائيل نعيمة وكامل حسين وعبد الجبار السحيمى ... ، فى هذا الوقت بالذات نشاهد كذلك من يعلنها حربا شعواء محاولاً الرجوع إلى بكاء أمرئ القيس ومقامات الحريرى ... يريد أقوام إيقاف المسيرة . فمنذ مقدمة ابن خلدون لا نعثر على مستوى فطاحل التفكير الإسلامى . إن الفكر العربى – الإسلامى تجمد لأن أداته الإجرائية الأولى تجمدت، فحيوية الفكر منوطة بحيوية اللغة .

ورغم كل شئ ، إن تأشيرات تبعث على الأمل . فجهود مجامع اللغة بالقاهرة ودمشق وبغداد تطور ، إلى حد ما ، العربية محاولة تعميمها . وبفضل الصحافة والإذاعات والتلفزات التى تستعمل الفصحى الميسرة ، كما بدأنا نشاهده فى بعض البلدان (كالمغرب ، مثلا) عوضا عن الدارجات ، اقتربت من القراء والمستمعين وأثّرت فيهم . فلغة الاستعمال اليومى ، لدى العامة ، لغة وسطى لا هى "زنقوية" كذى قبل ، ولا هى لغة فصحى ... إننا فى مرحلة تبعث على

الأمل ، والفضل الأعظم يرجع قبل كل شئ إلى المدارس الابتدائية .

فالمسافة بين مشاغل ومشاعر شعوب العربية وحاجياتها حاليا ، ليست هى مشاغل ومشاعر أجدادهم وحاجاتهم .

لذا يجب أن تكون لغة الأحفاد معبرة عن عصرهم وعصرنتهم ، لا عن ماضٍ تليد . على أن من الماضى ما يبقى تراثا يتمتع بحرمة الإرث على قدر ما يغذى الحاضر ، الحال ، ويسهم فى تشييد المستقبل . فلا فائدة فى أية حقبة من الماضى إذا كانت لا تستثمر حاليا ولا تغذى الثقافة وتفتح الآفاق أمام المستقبل.

نعم ، لكل جيل حاجات وتعابير لا نستغنى عنها فى عالم المعرفة وفى عالم الفنون وعالم التصنيع . والعربية ملزمة بأن تساير عصرها ، كما سايرت عصور الثقافات السابقة . إنها مطالبة بأن تكون اليوم فى مستوى ماضيها حين تفتحت بفضل الاحتكاك بالثقافات الأجنبية ، فترجمت ، ونقحت وأوّلت وشرحت وكيفت وأضافت .

فكلما أخذت لغة على نفسها أن تعيش متفتحة على التجديد لا يمكن اعتبارها ميتة . قد تعانى بعض الانحرافات ، فيقال عنها إنها عليلة يجب علاجها ، من ذلك توقف العربية على قواميس تتحرى المنهجية . وتلتزم ، هى كذلك بالحركة والسرعة فى المواجهة .

☆ ☆ ☆

توجد لغتان وكلتاهما عربية . أولا لغة تاريخية (لم يعد أحد يستعمل أساليب الجاهلية والمقامات) ، وثانيا ، لغة التخاطب المعاصر بين الدول العربية ، فى مختلف المبادلات ، وهى أيضا لغة الصحافة .

العربية تتطور ، رغم كل شئ ، وفى غالب الأحوال ، وإن كانت لا تواتيها دائما الظروف . فهى واقفة فى الأغنية والمسرح والسينما حيث الفنانون الكسالى مازالوا يستعملون العاميات ، وهذا استعمال يجب مقاومته .

☆ ☆ ☆

ولتنسجم اللغتان ، تقدم كثير من الغيورين بمقترحات ، منها الاقتراح الذى طالب به عبد العزيز فهمى ، وهو اتخاذ الحروف اللاتينية محل الحروف العربية .

لكن هذا الحل لم يقبل لما قد يحدث من مسخ .

وهناك محاولة يحيى بن العباس المغربى الذى أراد تسهيل الخط العربى بابتكار حروف مطبعية حديثة مضبوطة . وتتلخص طريقته فى ثلاث نقط :

أولا : فصل الحروف بعضها عن بعض .

ثانيا : إبدال الخط المستدير بخط مستقيم .

ثالثا : كتابة علامات الضبط إزاء الحروف ، لا فوقها أو تحتها (لؤلؤ = لوءلوء) محاولة ابن العباس مجهود إصلاحى ، بيد أنه صعب التطبيق، وقد يزيد المشكلة تعقيدا .

☆ ☆ ☆

وهناك محاولة أخرى . قدمها محمود تيمور فى كتيب طبع بالقاهرة عام ١٩٥١ ، سماه "ضبط الكتابة العربية"

يتلخص مقترح تيمور فى:

أولا : أن تكون صورة الحرف التى تقبل الاتصال من بدء الكلمات (حاء واحدة) "حـ" عوضا عن "ح" و عن الحـ و "مـ" عوضا عن "م" .

ثانيا : أن يحتفظ على الكاف المبسوطة .

ثالثا : تظل حروف : ء ، ا ، د ذ ، ر ز، و ، ة ، على صورتها فى حالة إفرادها .

رابعا : أما فيما يخص علامات الضبط فتقع على الحروف بأعيانها .

بهذا سيتغلب أصحاب المطابع على المصاعب التى يتجشمونها ، سيتحرر صندوق الحروف من الكثير مما يثقله ، حتى لو أضفنا إلى هذا الصندوق المنقح، علامات الضبط ، فلن يضيق بها ، وسيصبح لا يزيد على خمسين عينا ، وفى حين أن صندوق الحروف غير المضبوطة فى حالتها الراهنة المتجددة الصور يربو على ثلاثمائة .

ويجدر بنا أن نشير إلى محاولة أخرى

من هذا القبيل دخلت حيز التطبيق ، بفضل صاحبها الأستاذ أحمد الأخضر غزال . وبما أنه طال الحديث عنها في كل المؤتمرات العربية وباتت معروفة ، لا نرى حاجة لعرضها من جديد . وعلينا أن ننتظر ما ستظهره التجارب لنحكم لها أو عليها .

☆ ☆ ☆

لم نورد كل المقترحات التي عرضت لحل هذه المشاكل ، واكتفينا بنماذج منها، واخترنا من هذه النماذج أحدثها . فلماذا الاقدمون قد فطنوا إلى ضرورة تغيير الخط وتسهيله ، فوضعوا النقط تحت وفوق الحروف ، بعد أن كانت خالية منها ، حتى عصر الأمويين وفي نفس الزمن ألم يخترعوا علامات لضبط الحروف ؟ أما المعاصرون فبقوا يتأرجحون أمام الإصلاحات الملحة التي يقتضيها العصر ...

هكذا ، بمجرد ما انخرط العرب في حظيرة التمدن ، اندفعوا إلى التدوين بلغة مجددة "عصرية" بالنسبة لعصرهم ، في حين نحيا اليوم بلسان ليس معاصرا لنا . وبما أنه لم تكن علامات الضبط توضع دائما على الحروف ، لجأ الأقدمون إلى خطة بلغت بالنسبة إليهم درجة تقدمية . فكلما خشي أحدهم أن يقع تحريف أو التباس في لفظة ، كتب بعدها كيف يجب ضبط حروفها ، مثلا : ضرب (ضم الضاد وكسر الراء ...) . تلك احتياطات، أصبحت اليوم الحاجة إليها ماسة أكثر من ذي قبل ، ووجب التعبير عنها لكن بطرق مختصرة ودقيقة ، إنه تغيير لن يتم إلا عندما يشرع في تغيير الذهنيات ، محاربة ما بأنفسنا من مركبات ، مركب النقص الذي يجعل أقلية مستلبة تزدري لغتها وثقافتها ، وتميل أكثر من اللازم إلى الإغراب في التغرب . كما يجب محاربة مركب الكبرياء الذي يعوقنا عن أن ننظر للحقائق كما هي، علينا ألاَّ نحتقر كل ما ليس بقديم وعربي صميم ، محاولين إغلاق الأبواب أمام التطور الذي لا حياة إلا به .

خامسا : اللغة العربية ذخيرة ثمينة ورثناها عن أجداد نمجد كثيرا منهم ، فأصبحت من أنفسنا : عاطفة قوية ، وسكنا ، ومقوما أصيلا لكياننا المادى والمعنوى لكنها ليست سليقية ، لأن فطريتها اضمحلت من جراء مزاحمات غير شرعية تشنها العاميات التى تضايقها فى المسرح والسينما والأغنية . لأجل تلك الرابطة الوثيقة (وهى الرابطة الأولى) وجب علينا أن نرعى لغتنا العربية بعناية جدية خالصة .

أما العلاقة الثانية التى تربطنا باللغة العربية فهى علاقة بين إنتاج ومستهلكين . نقول إنتاجاً ومستهلكين لا إنتاجا لمستهلكين ، لأن للغة العربية ماضيا عتيقا . فهى لذلك إنتاج مشترك بين القدماء والمحدثين ، بين الأساتذة والتلاميذ ، بين من يحترف التعليم ومن لا يحترفه ، فاللغة العربية ، ككل لغة ، إنتاج جماعى يشارك فيه أفراد كل الطبقات فيعتبرون بالنسبة للغتهم القومية منتجين ومستهلكين ، فى نفس الآن ، (وأحيانا يلعب بعض الأفراد نفس هذا الدور بالنسبة للغات أجنبية ، لكن هذا لا يعنينا هنا) .

أما أسرة التعليم ، فتمتاز روابطها باللغة العربية من حيث العمق والوثاق ، لأن اللغة هى الأداة التى تستعمل فى كل آن وحين . فالصحافيون والمعلمون – بصفتهم بائعى حروف وكلام – تصبح اللغة عنصراً أساسياً فى حياتهم اليومية، يخالطونها مخالطة متينة دائمة ، أكثر مما يفعل غيرهم . يمكن أن يعبر عن هذه الرابطة بلفظة مقتبسة ، هى أيضا من علم الاقتصاد السياسى ، فنقول : إنها رابطة بين المنتج وإنتاجه .

★ ★ ★

هكذا سيتوقف نفور الأجانب من

لغتنا ، ونحفز شبابنا على الاغتراف من ثقافته القومية ولغته . فلا بد من أن نبشر، كما يقول الحديث ، ولا ننفر .

كلنا نعلم الضجات التى يحدثها الرجعيون كلما دخلت فى اللغة العربية مصطلحات جديدة ، ويسمون ذلك بالبدع، والرطانة والأعجمية ، كأنهم لا يستعملون الأدوية الأجنبية ، ولا يركبون السيارات الأجنبية ، ولا يلبسون اللباس المصنوع فى الخارج ، وطبقا للصناعات الأجنبية .

بعضنا يتعلق بالغرابة فيسقط بين تراكم الألفاظ المبعثرة كأوراق على الرصيف ، فى فصل الخريف ، وقد اعوج عنقنا فلا نرى فواكه المعانى على أغصان الشجرة . إنها تتراءى لمن يستطيع أن يرفع الرأس ، ولا يعاكس النظر ، لا بالبصر ولا بالبصيرة ، ويتأمل وينظر . فمن يُرد أن يقضى على التقليد "الأعمى" فلابد له أن يبدأ بالجرأة والتفتح على العصر . فالحياة وتطوراتها لا يمكن أن تجمد فى القواميس . المقدس هو الكل :

الكون فى الكلام ، وحضور فى العالم ، حضور فاعل فى عالم حى متفاعل . الكلام "يَحدُث" و "يُحدِث" ويشير إلى ما فى العالم ، يلفت إليه النظر ، يجليه ، وهو فى ذات الوقت قالب للفكر وللوعى وحتى لما هو غامض ومبهم . الكلام ، أصلا ، ليس مطلق إشارات ، بل حركة نمو وتقدم على مسيرة كل كائن بشرى ، ومن مهده إلى لحده ، أو على الأصح ، من البداية (الولادة) إلى ما لا حد له من الأجيال المتعاقبة ، من آدم إلى فناء الأرض ومن عليها .

☆ ☆ ☆

لغتى من صميم كينونتى وكيانى ، إنها مجموع شفعائى عند التاريخ ، وستدوم ، هى مسلكى فى الحياة وموردى من وجدان الآخرين ، مابقيت حية فى التاريخ ، كالتاريخ . الكلام ليس إلا علاقة بين من وما أنا ومن وما أريد أن أصير. إنه صيرورة الأفكار التى انسجم بها فى العالم ، لا مجرد وصفات مختلفة ، ولكنها وصفات تنعش الأحياء ، إلا أنها ليست

مرهونة بزمانى أنا ، أو زمان أى عربى آخر ، إنها للعرب أجمعين ، من مضوا ، ومن سيأتون ومن سوف يأتون ، إنها ملك للمحدثين ، كما كانت ملكا للسابقين ، ومن هنا ، فللمحدثين الحق أن يتصرفوا فى اللغة ، لأنها ملك لهم ، أن يتصرفوا فيها تلبية لمقتضيات حاجاتهم التعبيرية . إن اللغة هى الذاكرة القومية للشعوب ، تدوِّن تاريخها ، وتلوِّنه عاطفياً واعتقادياً... اللغة هى حياتنا المنطوقة ، تاريخنا من وجهيه الباطنى والخارجى .

بـ "Arabic Numerals" وعند الفرنسيين "Chiffresarabe" ، يتنكر لها بعض العرب لما ينسب إلى العرب ويستعملون ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، .. ويستعيضون عن ٥ بالصفر (٥ = ٠) ، وعن الصفر بنقطة (.) ، مع أن zéro (0) آت من لفظ إيطالى منقول عن العرب (صفر) الذين نقلوه عن الهنود .

☆ ☆ ☆

إن اللغة العربية فى أشد الحاجة إلى التحرر من التحجير الزمانى الذى تعانيه فالمحجرون يظلموننا ويظلمون اللغة العربية التى ينصبون أنفسهم أولياء عليها ، باسم الدفاع عن الماضى .

يظهر أن التحجير المشار إليه آت من ضيق فى الأفق الثقافى ، ومن نزعة أرستقراطية يمتاز بها المحجرون .

فلغة كل أمة هى ملك مجموع طبقات الأمة ، على اختلاف أجيالها . فالعربية هى ما أخذ عن العرب بإضافة كل ما زاده المتكلمون والكاتبون بها فى مختلف العصور .

☆ ☆ ☆

إن كانت العربية هى ما قدمنا ، تتطور وتحيا مع حياة الأجيال المتتابعة ، جاز أن نقول : " إنها لغة حية وإنها تشمل ماقاله الأسلاف ، وأسلاف الأسلاف ، ومجموع من خلفهم ، وما نقوله نحن أو نريد أن نقوله « وسنعد كذلك من الأسلاف ، بالنسبة لأخلافنا »". فلو كانت اللغة وقفاً على القدماء لانقرضت وقبرت معهم .

يقول البعض إن العربية لغة القرآن لذلك يجب أن نحافظ على صيغتها الأولى وأن تكون وقفاً . الجواب هو أن الإسلام أجاز الاجتهاد فى الفقه والأصول ، فلم لا يجيزه فى اللغة ، خصوصاً في لغة التداول ، كيلا يستديم التعامل بألسنة أعجمية ، كما هو الحال اليوم ، مما يبعد عن لغة القرآن وعن اللهجات العربية كلها .

إن الاجتهاد ثورة فكرية عظيمة تنبىء عن ذهنية وثابة إلى التقدم . فما يجوز لذهنية الرجعيين المقلدين أن تعرقل الاجتهاد فى ميدان اللغة ، أى فيما يخص الآلة ، بعد أن أغلقت بابه فى ميدان الأصول ؟

نعم إن « باب الاجتهاد قد أغلق » . نعم ، ولكن الذين أغلقوه لم يعتمدوا أسساً إسلامية متينة ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى فبإغلاق باب الاجتهاد قد أغلقت فى وجه المسلمين جميع أبواب الثقافة والمعرفة . من ذلك الوقت ، والعالم الإسلامي في تقهقر ، فكان ما كان من استعمار وتخلف ، إن حتمية الاجتهاد فى الفقه وفى اللغة وفى كل ميدان من الميادين أمر لا مرد له فويل للمقلدين من عقم التفكير ، وعقم الثقافة ، وعقم الاقتصاد . فالعاقبة للتطور والرقى والحياة . فلا منبع لهما إلا التوتر نحو التغيير إنه عنصر طبيعى يفرض نفسه إلزاماً، لأنه سنة الوجود وقانون الطبيعة .

ثم هناك ، إلى جانب الاجتهاد ، قاعدة أخرى أساسية هى « الإجماع » . قد أجمعت الأمة العربية ، من أقصاها إلى أقصاها ، على إدخال كلمات وتعابير من أصول أجنبية استعملها الأولون ، وأخرى أضافها اللاحقون وهكذا ...

ففى الفهرست ، مثلاً ، يستعمل ابن النديم : أنالوطيقا (analytique) وأرطوريقا (rethorique) ، وسوفسطيقا (sophistique) ... كما يعطى أخبار المهندسين و « الأرثماطيقيين » ...

فهل من حرج إذا احتفظنا بأسماء

المخترعات كما سماها أصحابها ، تفادياً لكثرة المترادفات والتناقضات ؟

☆ ☆ ☆

والمصدر الثالث فى علم الأصول هو القياس . وبما أننا أجمعنا على تقليد الغربيين ، فى كثير من حركاتهم وتنظيماتهم « التجارية والصناعية والإدارية » ، فلم لا نقلدهم أيضاً فيما يرجع إلى أسماء الآلات المعبرة عن هذه الحركات والأنظمة التى أبدعوها وسموها؟

إن باب الاجتهاد قد فتح ، وليس فى القرآن والسنة ما يبيح إغلاق بابه . فالتنكر العبثى للاجتهاد ليس من الإسلام الحق ، بل من الإسلام المفترى عليه الذى يعادى الإسلام الصحيح ، إسلام إجماع الجماعة ، وإسلام مبدأ القياس .

نعم ، للسلف علينا حق المحافظة والصيانة لما أبدعوا ولما قدسوا ، ولكن لا محافظة إلا بالترميم ، ولا صيانة إلا بالتجديد . لذلك كان لنا من الحق فى اللغة مثل مالهم . لقد اوفت بحاجاتهم ، ونريد أن تفى بحاجاتنا ، وما أكثرها فى هذا القرن . فلنا حق الإبداع ، وحق الاقتباس من لغات أخرى « كما فعل الأولون : بلاط ، أستاذ ، تلميذ ، ناموس ، قاموس ، قصر ، ... » .

وقالوا : الأين ، والكيف ، والكم ، والعنعنة ، واستعملوا شخص ، وتطور ، وحمام ، والمحتسب ، وديوان ، وباشا ، وكاهية ...

بذلك لم تمت العربية ، بل على العكس .

☆ ☆ ☆

راجت بالمغارب لفظة Ordinatour ، أما بالمشرق العربى فهو Computor ثم سماه أخيرا الدكتور الأخضر غزال بـ «الحاسوب » ، مع أنه ليس الآلة الحاسبة التى عرفت منذ B.Pascal فى القرن 17 . إنه يقوم ، قبل كل شىء ، بعمليات رياضية عليا ، ويحلل نصوصاً ، ويختزن معلومات « فهو ذاكرة » ، ويحل مشاكل منطقية « فهو فكر متحرك » . فماذا نربح من إزاحة اسمه الأصيل ؟

لماذا كان العرب الأولون لا يخافون من أخذ الأشياء بأسمائها ؟

قلنا إن لغـــتنا لم تمت ، رغم مـــا أصابها من علل ، واستنتجنا كذلك أنها لا تحيا الحياة الكاملة ، كما يوده ويرضاه لها محبوها ، لأنها حياة واقفة فى كثير من الميادين . يقول فيكتور هيجو بأن اللغات « شبيهة بالبحر فى رج دائم... فمن العبث محاولة إيقافها . وبما أنه ليس فى مـقـدور أحـد أن يوقف الشمس ، كذلك لا يوجد من يقدر على إيقاف اللغات عن التطور . فعندما تجمد لغة ما يسرى فى جسمها الموت » [2] .

نحن لا نقصد بالجمود عدم الخضوع إلى القواعد النحوية والصرفية « أى الأسس الموروثة » ، ولكننا نود لو رفع الحجر عن الكُتَّاب لينفخوا أنفاساً جديدة ويدخلوا على العربية تنقيحات للقضاء على الإبهام والالتباس كى يتم الفهم بوضوح والتفاهم الدقيق .

نسافر إلى بلدان عربية ، ندخل مطاعم ، فتقدم لنا قائمة الطعام ، ولكن غالباً ما يصعب علينا فهمها ، فنأكل على غير هدى ، أو نسأل كيف تقرأ مسميات الأكلات ، كما نسأل عن معناها وتركيبها ، أو نتغلب على الصعوبة بقراءة القائمة بلغة أجنبية « عندما توجد قوائم مزدوجة » فمثلاً :

« رقائق بتللو » لولا المقابل Piccata " de veau " لما فهمت ... وكذلك « بطاطس بورهة » " Puree "، و« ملبا » " Melba ".

هذه لائحة من قائمة بمطعم « فلفلة » بالقاهرة . وعندما يذهب مصرى إلى المغرب يبقى هو كذلك حائراً إلى أن يطلب الإغاثة من الندول .

إن لغـــوينا لم يوحـــدوا ، ولو مصطلحات العيش الأولية التى يقوم عليها كياننا الفردى والمجتمعى ! فأول خطوة فى سبيل توحيـــد العـــرب هى التفاهم فيما يتعلق بـ « الحياة النباتية ».

☆ ☆ ☆

(2) V. Hugo, Preface de Gromwell.

وما دمنا لم نخرج من تضارب الكلمات وما تحدثه فى أفكارنا من بلبلة ، وفى جهودنا الثقافية من تقصير ، فلن نتغلب على التخلف . فلابد أن نفتح باب التجديد والاجتهاد لنستطيع أن نقول مع الشاعر :

وإن فؤادى بين جنبى عالم
بماأبصرت عيني وما سمعت أذنى
وفضلني فى القول والشعر أننى
أقول بماأهوى ، وأعرف ماأعنى[3]

محمد عزيز الحبابى

عضو المجمع المراسل من المغرب

---

(3) البيان والتبيين ، ص ٢١٤ .